مجلة الحكمة للدراسات التاريخية
Eissn :2600-6405 Issn : 2353-0472
المجلد 10 / العـدد: 04 (2022)، ص: 08–28

الملحمة القديمة تراثا إنسانيا و بعدا تاريخيا

دة. نوال طبيب

جامعة أكلي محند أولحاج – البويرة (الجزائر)، الإيميل المهني للباحث الأول

تاريخ الاستلام: 2022/10/19 تاريخ القبول: 2022/11/19 تاريخ النشر: 2022/12/12

ملخص:

تعرف الساحة الأدبية العديد من الأنواع ولعلى أدب الملاحم من أقدمها ذات الجذور الشرقية، بحيث تعود نبذة الأولى لهدا الصنف الأدبي لبلاد الرافدين من خلال ملحمة جلجامش في الألفية الثالثة ق.م وهي الأقدم على الإطلاق على الأقل ما تم اكتشافه من طرف علماء الأثار لغاية الآن، وتاليها ملحمة المهاباهاراتا في الأدب الهندي التي تعد أطول الملاحم ويعود تاريخها للألفية الثانية ق.م، كما ساهمت الحضارة الإغريقية في إثراء هذا الصنف الأدبي من خلال ملاحم هوميروس وهزيود ويعود تاريخهم للقرن العاشر و الثامن ق.م على التوالي.

ولكن دراسة هذا النوع من الأدب في الفترة القديمة يشوبها الكثير من الصعوبات بسبب ندرتها أو بثر أجزاء هامة منها وهذا ما يجعل دراستها في غاية الصعوبة واستنباط الأحداث التاريخية صعب جدا بسبب ضياع أجزاء منها من جهة وامتزاجها بالأسطورة من جهة أخرى، في هذا الإطار تأتي هذه الدراسة لنفض الغبار عن المصادر الأدبية القديمة والمخلفات الأثرية دون تهميش الدراسات الحديثة لهذا النوع الأدبي، للوصول إلى استخلاص الأصول والمعاني الأخلاقية لأدب الملاحم ومساهمتها في تدوين التاريخ القديم.

كلمات مفتاحية: تاريخ، الأدب، المصادر، العصر القديم، الحضارة.

Résumé:

La scène littéraire connaît de nombreux genres, et la littérature d'épopées est l'une des plus anciennes aux racines orientales, si bien que le premier aperçu de ce genre littéraire Son origine remonte aux civilisations de la Mésopotamie qu'elle remonte à l'épopée de Gilgameš au troisième millénaire avant J.-C. tout, du moins ce qui a été découvert par les archéologues jusqu'à présent, suivi de l'épopée Mahabharata dans la littérature indienne, qui est la plus longue de toutes les épopées connu à ce jour ; Et qu'elle remonte au deuxième millénaire avant J.-C. La civilisation grecque a également contribué à l'enrichissement de ce genre littéraire à travers les épopées d'Homère et d'Hésiode, datant respectivement des X^{e} et VIII^{e} siècles av. J.-C.

Cependant, l'étude de ce type de littérature à l'époque antique était entachée de nombreuses difficultés du fait de l'éparpillement de pans importants de celle-ci. C'est dans ce contexte que s'inscrit cette étude afin de dépoussiérer les sources littéraires antiques et les vestiges archéologiques sans marginaliser les études modernes de ce genre littéraire, en afin d'extraire les origines et les significations morales de la littérature épique et sa contribution à la codification de l'histoire ancienne.

Mots- Clés: Histoire, Littérature, Sources, Antiquité, Civilisation.

***المؤلف المرسل:** د. طبيب نوال

1. مقدمة

تختلف مصادر التاريخ القديم عن مصادر التاريخ الحديث من حيث النوعية والكم، فكتابة التاريخ القديم يشوبها الكثير من النقص والبتر، بسبب إفتقار المصادر الأصلية لبعض الحقب الزمنية وجوانبها الحياتية. وأحيانا تكون هذه المصادر نادرة، وإن لم تتوفر المصادر الأصلية والمعاصرة للأحداث تصعب

كتابة التاريخ. إذ يجب الاستعانة بوسائل حديثة لدراسة المصادر القديمة باعتبارها المنبع الأصلي الذي يستقي منه الباحث معلوماته.

ولقد قدمت المصادر الأدبية إسهامات وفيرة من حيث المادة العلمية التي يمكن توظيفها على أساس منهجي مرفق بنقد باطني وظاهري، قصد استنباط الحقائق واستبعاد المعلومات التي يشوبها الشك، لتقدم في النهاية معلومات تقترب من الواقع. وإذا تحدثنا عن المصادر الأدبية يجب التطرق إلى الملحمة باعتبارها أحد اهم منجزات الفكر البشري في العصور القديمة والتي تشكل الان موروث لا يمكن الاستغناء عنه في الكتابة التاريخية.

2. مفاهيم أساسية:

1.2 تعريف الملحمة:

هي لفظة على وزن مَفْعَلَةٌ، وهي الوقعة العظيمة من وقائع الحرب، أين يتلاحم[1] الجيشان المتقاتلان. ولقد استخدمت اللفظة أيضا للدلالة على التآلف والإصلاح من معنى لحم الأمر بمعنى أحكمه وألف بين أجزائه. أما الملحمة في اللغة الإغريقية، فمعناها القصة أو الشعر القصصي الذي يختص بوصف القتال، وهي بالإغريقية (Epos)، ومنها التسمية بالإنجليزية و الفرنسية Epic و Epopée [2].

2. 2. تعريف الشعر الملحمي:

هو جنس أدبي قريب يتغنى فيه الشاعر بما يختزنه تاريخ مجموعته البشرية، يتراوح عدد أبياته بين مئات إلى آلاف الأبيات، وتتناقل عبر الأجيال عن طريق الرواية الشفهية، ودونه الشعراء المتجولون.[3]

2. 3. أهم الملاحم القديمة:

عرفت الآداب القديمة ظهور عدة ملاحم في مراكز حضارية مختلفة من العالم القديم، ومن أهم الملاحم الملحمة الرافدية، حيث تعد ملحمة جلجامش

ذرة الأدب الملحمي وأقدم نموذج في تاريخ الحضارات، وهي قصيدة شعرية طويلة دونت بالخط المسماري و بلغة بابلية، وهي ذات شهرة ليس في العراق وحسب، بل في أغلب المراكز الحضارية للعالم القديم.[4] وتروي الملحمة قصة الملك جلجامش سادس ملوك أسرة الوركاء الذي حكم حوالي الألف الثالث قبل الميلاد، و كانت له خصال مميزة.

وقد عرف الأدب الهندي ملحمة أخرى هي ملحمة المهاباهاراتا التي تعد أطول الملاحم في تاريخ الأدب الإنساني، وتضمنت القصيدة حربا تاريخية حدثت بين آل كورو وآل بانتاشالا من سلالة الملك (باهرات) كانت ما بين (1400 – 1000 ق.م)[5] كما أن الأدب الإغريقي قد عرف عدة ملاحم لكل من هوميروس وهيزيدوس كالإلياذة والأوديسا ، وقصيدة الأيام و الأعمال ونسب الالهة

3. كيفية الاستفادة من الملاحم في الدراسات التاريخية.

إذا كانت هذه الملاحم أهم مظاهر التراث الإنساني في القديم، فكيف للمؤرخ الإعتماد عليها في مجال الدراسات التاريخية؟ خاصة في ظل المعطيات المتوفرة، والتي تؤكد أن هذه الأشعار وردت فعلا، وتغنى بها القدامى، ولم تكن أشعارا مدسوسة من طرف شعراء متأخرين.[6] فضلا على أن هذه الأشعار حفظت في الذاكرة الجمعية وذلك يعد دلالة على صدقها .

وإذا أردنا التدقيق في صفة الصدق التي تتميز بها هذه الملاحم، وهل يمكن أن تحمل حقائق تاريخية، فإننا نلاحظ أنها مليئة بالأساطير، وأن الشعراء كانوا يغرقون في الخيال أثناء وصف الأحداث الواردة، ومن ثم فأن صفة الصدق لا تنطبق على هذه الأحداث الواردة. إنما تنطبق الحقيقة على الإتجاه السائد دون التفاصيل.

ولتوضيح الفكرة أكثر، يمكن تقسيم ما أوردته هذه الملاحم إلى ثلاثة أقسام يمكن من خلالها التأريخ لحضارات المجمعات القديمة.

القسم الأول: هو وصف الحياة اليومية، سواء كان في البيت أو السوق أو الحقل أو الميدان، و ما يصاحبه من وصف للأدوات و الأسلحة و الولائم و الاحتفالات والاستعداد للحرب، فهذا الوصف يكاد يكون وصفا تقريريا يمكن الاعتماد عليه اعتمادا كليا.

والقسم الثاني: ويختص بالقيم الاجتماعية مثل مكانة المرأة والدين والآلهة، وطبيعة النظم السياسية والاقتصادية السائدة والتعايش الطبقي والاجتماعي، وهو ما يمكن اتخاذه كأمثلة رمزية يمكن من خلالها استنتاج الوضع العام السائد.

أما القسم الثالث: فهو المتعلق بتلك الآمال والأمنيات الواردة على لسان شخصياتهم، والتي تعكس لنا فكرة عن هذه المجتمعات ومدى تقبلها للتيارات الفكرية الجديدة[7] في المجالات المختلفة السياسية والاقتصادية والحضارية .

4. البعد التاريخي للملحمة القديمة

4. 1. الملحمة الرافدية

- **ملحمة جلجامش قيمة أدبية وفنية وحضارية**

تحتوي ملحمة جلجامش على قيم متعددة الجوانب فهي تقدم مادة معرفية لعلماء الاجتماع والنفس والمؤرخين وتضيف الكثير من المعارف حيث تبرز صورة لملكية تعسفية محاطة بقداسة ملحوظة تجسدت في شخص جلجامش ملك مدينة أورك، ذلك الملك الذي حول مواطنيه إلى عبيد[8] كما أن المصالحة التي ينتهي إليها الصراع بين جلجامش و أنكيدو تمثل وحدة جدلية تؤلف بين القيم الأخلاقية التي يمثلها إنسان الطبيعة أنكيدو و أسلوب الحياة الحضرية التي يمثلها جلجامش حيث تظهر في الأخير نتيجة لذلك التآلف الجدلي بين هذين الضدين وهي التقاء الفساد الخلقي والسياسي الذي يمثله جلجامش والبعد الطبيعي البدائي لأنكيدو فتستقيم الشخصيتان اللتان تكمل الواحدة منها الأخرى على قاعدة الإنسان النوعي الجديد المتجه إلى تحقيق الذات.

كما ترمز شخصية أنكيدو إلى جدلية حضارية قائمة على التقدم والتخلف، وهكذا نجد أن الإرث الثقافي الإغريقي منذ عهد هوميروس قد تأثر بهده المعالم القائمة على الحنين إلى العصر الذهبي حيث لاحظ المفكر كيرك (Kirk) في هذا السياق أن فكرة العصر الذهبي ترتكز على نماذج في ثقافات الشرق الأدنى أين كانت الأساطير تتحدث عن ارض كاملة الطهارة يعيش فوقها الآلهة فحسب والحقيقة أن هذا الحنين إلى العودة تتضح معالمه في مؤلفات هيزيود خاصة من خلال كتاب الأيام والأعمال حيث نجد رجال العصر الذهبي يعيشون كالآلهة متحررين من مشقة العمل والحزن والشيخوخة ووجه القرينة هنا أن أنكيدو قد مات في عصره الذهبي دون أن يرى الشيخوخة أصلا. والملفت أن أسطورة العصر الذهبي الإغريقية تقول أن رجال العصر البرونزي المتدني من العصر الذهبي والفضي يذهبون إلى عالم الموتى دون أن يتركوا ورائهم رسما يذكر أي أن السمعة أو الشهرة كانت هاجسا ومحركا للملوك الإغريق كما كانت عند جلجامش.[9]

إن مأساة أنكيدو مع الحضارة والتناقض الموجود بين أفكار ومخططات ومقاصد البشر من جهة والمصير المفجع لهذه الأفكار والمقاصد من جهة أخرى يجعلان من ملحمة جلجامش محل اقتباس منها للأوديسا وكذلك التراجيدية الإغريقية ويؤكد صحة هذه الملاحظة التوازي الملحوظ بين العقاب الذي انزله كبير الآلهة السومريين أتليل بأنكيدو. والعقاب الذي فرضه رب الأرباب الإغريقي زيوس على بروميتيوس ردا على إفشائه لسر النار للإنسان و لقد جسد الإغريق جدلية التقدم والتخلف الملحوظة في ملحمة جلجامش في أسطورة باندورا (Pandora) التي خلقها زيوس ليحبط ما يمكن أن يحققه الإنسان من انتصارات حضارية بفضل استخدام النار فجاءت بندورا حاملة معها إلى الأرض الأوبئة و المجاعات و الحروب و كل الشرور وهكذا يتحول التقدم الحضاري الذي شاءه بروميشيوس

(صديق الإنسان والبشر) إلى اللعنة رد بها زيوس الرب الغيور والسلطان الاستبدادي المستأثر على ما صنعه بروميتيوس.[10]

- **ملحمة جلجامش رسائل فلسفية وأخلاقية**

إن النتاج الفكري والأدبي مرآة لحركة المجتمع وانطلاقا من ذألك فان جلجامش أول فرد في التاريخ منذ مطلع الإلف الثاني ق. م حدد التمايز للفرد عن الجماعة. حيث ظهر ذلك الشخص الذي يفعل في الجماعة ويؤثر في تطويرها ذلك لان قبل ملحمة جلجامش لم يعثر في أدبيات الشرق الأدنى القديم (وهي أول أدبيات مدونة في التاريخ) على ملامح واضحة للفرد. لان جل النصوص تتعامل مع الشخصيات الإلهية التي صنعت الكون وخلقت الإنسان وبنت له مدنه وعلمته وأسست له تقاليد الحضارة ليصبح الإنسان سلبي متلقي حيث لم يكن له دور مستقل يبرز به.

وجلجامش هنا هو أول شخصية تعلن عن حضورها في الاستقلال عن الجماعة، ليعلن عن بداية عصر الإنسان الذي يرث الأرض ومنه كانت للملحة عدة معاني ورسائل يمكن التوصل إليها[11].

الفردية والحرية المطلقة والمرأة

كان جلجامش الفرد الحر الوحيد بين مجتمع العبيد وكان ملك مطلق السلطات أقوى الرجال جسدا وأكثرهم ذكاء مفعما بالنشاط الدائم ولم يكن الملك الشاب يعرف ماذا يفعل بحريته المطلقة وتكوينه الخارق الذي كان سبب في وحدته وعزلته عن بقية الناس حيث بحث عن جلائل الأعمال التي يمكن أن يرضي بها طاقته الكامنة فبني بها سور أورك الذي مثل أعجوبة عصره.

وقدمت الملحمة أيضا صورة عن أنكيدو الذي خلق ضدا لجلجامش وصورته الملحمة في شكل الإنسان البدائي قبل دخوله عصر التحضر ذلك لان

علاقته بكاهنة المعبد كانت أول اتصال له بعالم البشر حيث ودع معها الحياة البرية بسبب اكتسابه الحكمة والمعرفة من الكاهنة التي تابعت تعليمه والأخذ بيده نحو عالم الحضارة تدريجيا. لتكون المرأة بالنسبة للإنسان الأول سبب الاستقرار في الأرض وتوديع حياة التنقل والتوجه نحو إنشاء المستقرات الثابتة وهي بذلك الخطوة الأولى تجاه الحضارة. ذلك لان علاقة هذه المرأة به ليست مجرد علاقة رجل و امرأة بل هي دلالة على دور المرأة الضارب في المجتمعات الأولى[12].

4. 2. المهاباهاراتا

ملحمة تتضمن التاريخ:

تتحدث هذه الملحمة عن حرب تاريخية تتضمن أبعاد كونية و هي حرب كانت قد وقعت بين شعبي " آل كورو" (Kurus) و " آل بانشتالا " (Panchala) . ويرى الباحثون أن هذه الحرب كانت النواة الأولى لهذه القصة، ولقد حدثت فعلاً على أرض كورو – شيترى في الفترة الممتدة بين (1400–1000 ق.م).

و يعتقد الباحثون، منهم خوان ماسكارو أنه ليس من الشك أن الحطرب الموصوفة في المهابهارتا ليست رمزية، و الأرجح جداً أنها تكون مستمدة من وقائع تاريخية التي تناقلت عبر الأجيال المتعاقبة، و هي قصة حرب ضروس أبطالها من طبقة " شاترية " (Kshatrya) الحاكمة ، و تدور الملحمة حول صراع قوي بين الخير و الشر ، و يجسدها " آل بانداغاس " و " آل كورافاس " المنحدرين من سلالة الملك بهارات .

حيث كان والد درتيا–راشترا وباندو ملكاً على أرض هاستينابورا (Hastinapura) الواقعة على بعد خمسين ميلاً من مدينة دلهي حالياً. وإثر موت الملك تولى إبنه الثاني سدة الحكم، وهو باندو بدل أخيه البكر درتيا-راشترا الأعمى، تهب الآلهة خمسة أبناء لباندو ويعرفون بإسم " آل بانداغاس" أما درتيا-

راشترا فيحظى بمائة طفل، كان أولهم دوربودانا الذي سيصبح ممثلاً " لآل كورافاس " وتجسيداً حياً لقوى البشر في الطبيعة لما عرف عنه من غطرسته.

و لما يموت باندو يخلفه على العرش أخوه درتيا-راشترا الذي تصوره الملحمة كحاكم ضعيف بسبب عاهته، مما جعله يسند الحكم لإبنه البكر دوربودانا الذي يسعى إلى تصفية أبناء عمه لكي لا يسلبوته الملك ، و هو سبب إِشتداد الصراع بين آل بانداغاس و آل كورافاس[13]. و تنتهي الحرب بتحقيق آل بانداغاس نصراً كلف البشرية خسائر جسيمة في الأرواح[14].

ولا ريب اليوم أن خبر هذه الملحمة شاع في القديم، فبلغ الإغريق والرومان في عهد إسكندر المقدوني حيث إِتصل الفلاسفة الذين حملهم معه في غزوه للهند بثقافتها ثم عادوا إلى بلادهم – أو بعضهم على الأقل – حاملين شيئاً منها، خاصةً وأن بعضهم إِستقر في الإسكندرية. فأثرت في مدرستها. كما تسربت هذه الملحمة إلى بلدان أخرى و تركت بصماتها في فنون الشرق و آدابهم[15] . ولقد قسمت الملحمة المكونة من حوالي 200.000 بيت إلى أناشيد ، و جمعت في ثمانية عشر كتاباً[16] .

4. 3. إليادة هوميروس مصدر تاريخي للعصور المبكرة

لم يحتل اي شاعرٌ آخر في جميع العصور التاريخية مكانةً في حياةِ شعبٍ كمكانةِ هوميروس عند الإغريق، فهو الرمز الأعلى للوطنية والمصدر الموثوق به لتاريخهم القديم – حسبهم – والشخصيةُ

الفعالة في سرد أساطير آلهتهم، فضلاً عن أنه أحبُ الشعراءِ إلى قلوبهم فهو معلم الإغريق الأول، ويستحقُ أن يُنظرَ إليه كذلك نظراً للجوانبِ المختلِفةِ التي طرقها: منها إدارةُ الشؤون الإنسانيةِ وتهذيبها إلى درجةِ أن مؤلفاتهِ إِعتبرت إنجيل الإغريق. لكن القارئ في حقيقة الأمر يجد نفسه أمام قصتين طويلتين من الشعر، أولهما الإلياذة التي إِختصت بسرد بعض الجوانبِ من الحربِ الطروادية، والثانية

الأوديسا المخصصة لسرد المتاعبِ و الأهوال التي واجهها أوديسيوس أثناء عودته إلى وطنه (آتيكا) .

ورغم الاختلاف الذي كان حول تحديد بعض الجوانب في حياته ومولده ومؤلفاته، إلا أننا نلاحظ عدة ملاحظات اهمها:

- أن الشاعر جاء بعد الحرب الطروادية و هو ما أكده المؤرخون الإغريق مثل توكيديس[17] و ذلك من خلال دراسةٍ ممحصة لمفردات الملحمتين المنحدرة من اللهجتين الأيونية و الأيولية التي تكلم بها الآخيون ، فهي لغةٌ عتيقة وفي نفس الوقت فإنه من غير الممكن أن يكون الشاعر معاصراً للحرب الطروادية .
- أن مسألة تقرير ما هي الفترة التاريخية التي تشير إليها أشعار هوميروس كانت ولا تزال محل جدلٍ و نقاشٍ مطول ، والتي ما تزال بعيدةً عن وضع حدٍ لها؛ إن القصائد الهوميرية تعطي بشكلٍ كبيرٍ صورةً صادقةً للعالم الموكيني ، وأن الأشعار تسجلُ جنباً إلى جنبٍ مع الاِكتشافاتِ الأثرية الحديثة والمجموعةُ الخطية الثانية مصدراً رئيسياً للتاريخ الإغريقي في عصر البرونز[18].

ان الأشعار الهوميرية تصف الحياة اليومية في القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق.م، وتسجل مظاهر الحضارةِ التي سادت بلاد الإغريق وقتذاك، والدليل على ذلك الأسلحةَ والمنازل والملابس والحلي التي وصفت في الأشعار، فهي تشبه كثيراً ما كان متداولاً في تلك الفترة، وهو ما كشفت عنه التنقيبات الأثرية؛ فهناك ذرعٌ يشبه ذرع إياس، وكؤوسٌ تشبه كأس نسطور.

ولكن هذا التشابه لا يكفي لإثبات هذا الرأي لأن هذه التنقيبات نفسها كشفت عن فوارق واضحة – في بعض الأحيان – بين ما وصف في الإلياذة ولأوديسا وبين ما عرفه الإنسان في بلاد الإغريق خلال منتصف القرن الثاني عشر ق.م، لأن إغريق هذا العصر لم يكونوا قد عرفوا المعادن، حتى عند وصفه للحدث يصف أحداثاً ظهرت قبل ظهوره بوقتٍ طويل، فهي أشعارٌ تصف حضارة القرن

العاشر والتاسع ق.م مصورةً بإطارٍ مملوء بصورٍ وذكرياتٍ من العصر الموكيني والعصر الكريتي، وعرف الشاعر هذه الآثار من الروايات المتواترة عبر الأجيال.. في وقتٍ لوحظ فيه أن هذه الأشعار تصف العصر الذي أنشد فيه الشاعر هذه الأبيات حوالي القرن الثامن ق.م.

و مجمل ما يمكن اِستنتاجه أن وصف الشاعر به ثلاث عصورٍ تاريخية و هي العصر الموكيني ، و العصر المظلم ، و العصر الذي عاش فيه الشاعر ، إن القصائد الهوميرية تهتم بتسجيل العالم المفقود في العصور السابقة للشاعر ، فهي تشير إلى عددٍ من المظاهرِ الموكينية من خلال أسماء موكيناي و تيرنس و بيلوس و آتيكا ... الخ و مع ذلك يعد ما ذكر قليلٌ جداً إذا ما قورن بما طواه النسيان بين العالم الموكيني و عالم هوميروس بشأن المؤسسات و العناصر الثقافية ، كما أن القصائد تحتوي على عددٍ من المفارقات التاريخية التي لا تتناسب مع الإطار العام الموكيني ، و لكنها تتناسب في الواقع مع الفترة اللاحقة .

إذ أن نجاح العلماء في فك رموز المجموعة الخطية الثانية كشف لنا اِختلافاً بين العالم الموكيني وعالم هوميروس ، فهناك فجوةٌ بين الفترة الموكينية مع أجهزتها الإدارية و قصور الملوك الهوميريين التي كانت أقل تعقيداً في تنظيماتها التي كانت الكتابة بها مفقودة كلياُ فكانت عنصراً أساسيا في العالم الموكيني[19] . والملاحظ كذلك محاولة الربط بين الاوديسيا وبين بداية حركة الاستعمار في الغرب في النصف الثاني من القرن الثامن قبل الميلاد.

لقد كان الشاعر يحاول جاهدا النظر للوراء إلى عصر مفقود، حاول أن يعيد الحياة إليه، لكنه كان مدركا لعمق التغيرات التي حدثت في العصور المتأخرة. إذ تجنب الإشارة إليها، فلم يقل شيئا تقريبا عن الدوريين الذين استقروا في بلاد الإغريق بعد سقوط المماليك و القصور الموكينية ، و لم يذكر شيئا عن هجرة الإغريق إلى أسيا الصغرى إبان العصر المظلم ، فقد كان يسعى إلى استدعاء

مجتمع مفقود ، ولكن لم تكن هناك علاقات أو مادة يهتدي بها إلا الروايات و الآثار ، كما نجد انه يشير مرة واحدة إلى معرفة الأبجدية و فن الكتابة الذي اقتبسوه من الشرق ، ويشير أيضا إلى الفينيقيين الذين بلغوا ذروة مجدهم في القرن التاسع و الثامن قبل الميلاد .

أما في صورة المجتمع كما تصوره الإلياذة والأوديسا فنجد هناك تفريقا وتمييزا بين المتحضرين الذين يأكلون الخبز ويزرعون الأرض ويرعون الماشية ويقدمون الأضاحي، ويخشون الآلهة ويعطفون على الغريب، وغير المتحضرين المتوحشين الذين لا يعرفون النظام أو القانون.

ولقد كان هوميروس مدركا لحقيقة أن العصر الموكيني كان أكثر ثراء وقوة من العصر الذي يعيش فيه، فلقد بالغ في ذكر ثروة ملوكه، ولا يمكن أن يأخذ الباحث الوصف الأدبي للقصور الموكينية مع كنوزها الكبيرة، وعبيدها الكثيري العدد، لذا فيجب على الباحث أن يبحث في أثار القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد التي قد تكون في كثير من المواقع هجرت ودمرت، وحتى الصلات بالعالم الخارجي قطعت، ولم يستعد العالم الإغريقي عافيته إلا بعد انتهاء فترة الاضطرابات التي أعقبت العصر الموكيني.

وإذا عدنا للحديث عن صورة المجتمع في الملحمتين، فهي تشير إلى مجتمعين. مجتمع الإلياذة ومجتمع الاوديسيا، فالإلياذة تعكس صورة مجتمع أكثر قدما واقل انفتاحا عن مجتمع الاوديسيا، فضلا عن اختلافات الموضوع. فالإلياذة تسرد وقائع حرب لعبت فيها الطبقة الارستقراطية دورا قياديا[20]، فكان لها السيادة والسمو العسكري . بينما نجد صورة للطبقة الدنيا في الظل حيث لا تمثل شيئا في الحرب ولا في المجلس، وعلى العكس من ذلك في الاوديسيا، فانه يعطي صورة أكثر تفصيلا للمجتمع واقتصادياته، خاصة أنها تخصص مساحة

أكبر لأفراد الطبقة الدنيا التي يكون دورها محدودا في الإلياذة. فيظهر الشاعر هنا اهتماما كبيرا بمصيرهم[21].

4.4. القيمة الحضارية والتاريخية للملاحم عند هيزيدوس:

تظهر لنا أهمية هيزيدوس عندما نقارن بينه وبين هوميروس. لقد كان هوميروس ينشد في قصور الأمراء عن حياة الملوك وهو لا يتكلم إلا عن النبلاء. ويقدم لنا صورة عن عهد الأبطال، ورغم أن هذه الفترة تتصف بعدم الاستقرار الأمني.

و رغم ذلك فهي لا تخلو من العظمة و الفروسية ، و لكن بخلاف ذلك فان هيزيدوس كان يتحدث عن عامة الناس[22] . ويستخدم اللغة التي تلائمهم لأنه لم يتعرف على الأمراء والملوك. ولا يحب هؤلاء السادة. بل ألف كتابه للفلاحين أمثاله ليبدي إليهم النصائح ويدافع عن حقوقهم. وهو يصف حياة البؤس والشقاء التي كان يعيشها عامة الشعب.

كما انه أول صوت يرتفع في تاريخ الإغريق من صفوف طبقة الفلاحين يدعوا إلى الاهتمام بشؤون هذه الطبقة البائسة. لم يكن صوته شيء من الثورة. بل انه كان ينم عن الاستسلام لإرادة الآلهة. وينصح الفلاحين بالانصراف إلى العمل لتحسين حالهم. لم تكن مرحلة الثورة قد حلت بعد لكن وصف هيزيدوس لحالة بؤس الفلاحين تمهيدا للثورات الشعبية في العصور التالية من تاريخ الإغريق.

إن شعار هيزيدوس يمثل لنا الأوضاع الاجتماعية في بلاد الإغريق. القرن الثامن قبل الميلاد. وهو قد وصف لنا حالة الفقر والظلم في عصره عن معرفة مباشرة بمساوئ النظام السائد وشروره. لأنه لمسها بنفسه وكان يشرح كيف كان الفلاحون يستغلون دوما لتقديم ما يتطلبه الملوك والنبلاء. فكتابه الأعمال والأيام من أهم الوثائق عن التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي في

العصور الأولى من تاريخ الإغريق. كما أن كتابه انساب الآلهة يعد من أهم وأقدم المصادر عن العقائد الدينية وتطورها عند الإغريق.

وقد اتبع هيزيدوس أسلوب هوميروس في الكتابة فوضع وصفه للمجتمع ونصائحه العلمية للفلاحين في قالب شعري ينم عن حبه العميق لطبقته. وكان يشعر في الوقت نفسه بالفرق الأساسي بين موضوعه وموضوع هوميروس. و انه كان يدرك رسالته الخاصة للبشر و لا شك أن أشعار هوميروس كان لها تأثير عميق في تطور الإغريق الفكري مدة عصور طويلة [23] .

5. الملاحم والدراسات التاريخية

5. 1. مقارنة بين الملحمة الرافدية والإغريقية

إن موروث الميتولوجية الإغريقية التي شكلت تراث الحضارات الغربية[24] فيما بعد منتج عنها ملاحم تسرد ماضيهم البدائي و ما تضمنه من حديث عن البشر و الآلهة . فالآلهة لا تخيف الإنسان لأنها تعكس المزايا الإنسانية ولكنها مزايا مبالغ فيها مقابل مزايا الإنسان، لان الآلهة أسمى أناقة وأعظم قوة. كما تظهر الميثولوجيا الإغريقية الاهتمام العميق بالإنسان والقدر الذي يسير حياته، كما نلاحظ هيمنة الأرباب في مصير البشر كما في أساطير بلاد الرافدين.

ولقد جسد الأدب الإغريقي الشخصية البطولية بصورة نصف الآلهة أو الملك أو القائد المنفذ لإرادة الآلهة والقدر وأن البطل الإغريقي لم يفكر أبدا في التمرد على النظام الاجتماعي العبودي القائم على انعدام المساواة بين العبيد ومالكيهم – لذلك فصورة البطل في الملاحم الإغريقية منسجمة تماما مع الوضع الاجتماعي السائد.

وفي بلاد الرافدين كانت تدون المآثر على الرقم. فاستطاعت بفضل النتاج الفكري للمنطقة أن تنقل إلى الثقافات المجاورة. ولعل اختطاف زيوس الإغريقي لأوروبا الفينيقية أفضل تجسيد أسطوري للقاء الثقافي السامي الإغريقي

الذي كانت كريت أول ميادينه، ففوق هذه الجزيرة ولدت أوروبا خيرة الأبطال الأماجد.

ويمكن القول أن أساطير بلاد الرافدين و أساطير الإغريق تكاد تتطابق في موضوعاتها و الشخصية البطولية في أساطير المنطقتين قامت بادوار متشابهة فزيوس الذي تغنت الإلياذة. دانت له الناس جميعا فضلا عن الآلهة بالطاعة فصارع كل المصاعب والعمالقة فقتلهم جميعا ثم جلس بعد ذلك فوق قمة أولمب تحيط به بقية الآلهة.

إن شخصية زيوس يكاد ينطبق على الدور الذي قام به مردوخ حين جابه آلهة الشر والفوضى وأعاد الأمور إلى نصابها ثم جلس في معبده ينظم شؤون الكون.

وبمراجعة بسيطة لملحمة الإغريق الإلياذة والاوديسيا يمكن اكتشاف الكثير من نقاط التشابه بين أساطير وملاحم الشرق وبلاد الإغريق. حتى أن مغامرات هرقل تذكرنا بمغامرات جلجامش في ملحمته الشهيرة. و أن كان البطل في بلاد الرافدين قام بإعادة تنظيم الكون و محاولة تغييره ، فان البطل عند الإغريق استطاع أن يقدم للبشرية المعرفة الكلية لكيفية مواجهة الحياة[25]

لقد جسدت الملاحم الإغريقية القيم الإنسانية النبيلة، فبمفردات الفضيلة والخير لم تتغير، وقيم الخير والشجاعة والإيثار والمروءة كلها موضوعات اعتز بها الإغريق القدامى. وهي نفس القيم التي سعت لتجسيدها الملاحم في بلاد الرافدين.

كما جسدت شخصية هكتور وإياس اللذان التقيا أول مرة كعدوين ثم أصبحا صديقين، وهي الصورة التي رسمتها ملحمة جلجامش لعلاقة جلجامش بأنكيدو. فلقد بدأت علاقتهما كعدوين لكن انتهت كصديقين تضرب بصداقتهما

الأمثال حتى أن إلهة الحب الإغريقية الفرو ديني تشبه إلهة الحب البابلية عشتار[26] .

إن رمزية عبور جلجامش إلى ديلمون والحصول على سر الخلود تشبه إلى حد ما رحلة أوديسيوس إلى بلاد الشمس من اجل الحصول على المعرفة، حتى أن مغامرات جلجامش شبيهة بمغامرات أوديسيوس في مواجهة الأخطار والنهاية التي وصل إليها جلجامش عند حصوله على العشبة التي سرقتها الأفعى، وانه عرف انه عليه العودة من حيث بدا وهي ذات الرحلة التي واجهها أوديسيوس وعاد مع رجاله من حيث أتى.

أراد أخيليوس أن ينجز شيئا لأهل الأرض، فقامت الآلهة بمساعدته، لكن جلجامش اختلف عنه انه ذهب إلى الآلهة من اجل أن يأخذ منها سر الخلود وهو ملك للآلهة سعى البطل الإغريقي إلى إعادة تنظيم الكون لكن الرافدي سعى إلى خلاص الإنسان وخلوده.

وتشكل الملحمتان القوى الخيرة وتدفع الناس إلى الامتثال للأوامر ومحاربة قوى الشر الآمرة بالفوضى التي يجب محاربتها والقضاء عليها. و تنتهي كلا الملحمتين إلى النتيجة ذاتها حيث سيرت الآلهة البطلين و لكن في النهاية سخرت منها حيت انتهى الصراع إلى الإخفاق و العودة إلى نقطة البدء[27]

5. 2. علاقة الملحمة بالأسطورة والتاريخ:

الفرق بين الملحمة و الأسطورة هو أن الأشخاص الأساسيين في الأسطورة من الآلهة ، و أحداثها تدور حول أمور خلقية و كونية و صراع الخير مع الشر[28] و تشرح المعتقدات الدينية . أما الملحمة تدور حول فرد من البشر ، و تهتم بمنجزاته و بطولاته و مآثره إلا أن هذا التميز شكلي[29] .

يرى العالم " زاكس " أن التميز بين الملحمة والأسطورة لا يمكن الإلتزام به بشكل ثابت في الأدب، لأن بطلاً مثل جلجامش – مثلاً – قد يعامل مثل الإله في

سياقات عديدة في حين هو في الأصل شخصية تاريخية. ولكن يمكن أن نستخلص أهم الفروق بين الملحمة والأسطورة كما يلي:

- يكاد دور الإنسان يكون معدوماً في الأسطورة، لأن الإرادة الفاعلة والمؤثرة في الحدث هي الإرادة الإلهية، وهي ذات إرادة كاملة وكلية، وهو أمر يختلف كما في الملحمة، حيث يعلو صوت الإنسان ويبرز دوره في محاولة خلق عالم جديد مع أنه في النهاية ينصاع لقرارات الآلهة والمصير الذي حددته له.

- إن موضوع الملحمة الرئيسي هو صراع الإنسان مع قدره ومآثره وأعماله وهو موضوع يحمل شطراً تاريخياً قد يعود إلى أصل واقعي ومع ذلك لم يتحرج المؤلف من إضافة الكثير من الصفات للبطل ولاسيما تلك التي تعبر عن قدراته وشجاعته وحتى مواهبه في تفسير الأحلام، ودور الكائنات الإلهية في حياة البطل.

جسدت الأسطورة الحديث عن موضوعات مضامينها إنسانية ولكنها موضوعات كلية، كموضوع خلق الكون وترتيبه وتنظيمه ودور الآلهة فيه والصراع بين الخير

والشر. وهي في مجملها لا دور للإنسان فيها. ولا يستطيع أن يدخل في مجرى أحداثها، ولكن منحت الإنسان جزءاً من الحرية في اِختيار طريقه في الحياة.

- كل دور أنثوي من البشر دور ثانوي لا يكاد يذكر أمام الرجل ومكانته في الملحمة، إلا أن الآلهة الأنثى تؤدي الدور الرئيسي في الأسطورة وتؤثر في مجرى الأحداث. وتصل حتى في التأثير في مجرى الصراع وتغيره. والمثل في ذلك الصراع الذي كان بين هيرا وزيوس في الحرب الطروادية، ولإله تيامات والإله مردوخ، وبين عشتار (أنانا) ودوموزي في بلاد العراق القديم، لذلك فصفة الملحمة بروز الفرد الظاهر والمؤثر في صنع الحدث مع كل ما يميز الحدث من تنوع واِتساع.

إن التميز بين الأسطورة والملحمة هو ضرورة أملتها الدراسات الحديثة، وهو في جوهره يؤخذ في عين الاعتبار طبيعة الأشخاص والمضمون، ولكن هذا التميز قد لا يكون له وجود في ذاكرة مبدع النصوص. صحيح أن الاثنان ميز بين الآلهة والإنسان ووضع الحدود الفاصلة. ولكن أضفى على الآلهة جميع صفات البشر وطباعهم بإستثناء الموت، لأن صفة الآلهة الخلود والإنسان ميت لا محال.

أما محاولة النظر في الأسطورة والملحمة على أنها تاريخ أحداثه جرت في عصر ما، فإن الأمر كان وما يزال يجد من يناصره على مر العصور. فالأسطورة والتاريخ ينشأن عن التوق إلى معرفة الماضي، لكنهما يفترقان في القيمة التي تنتهي إلى ذلك الأصل؛ فهو أصل قدسي عند الأسطورة، وأصل دنيوي مفرغ من الأسطورة عند التاريخ. الأسطورة تنظر للتاريخ بإعتباره نجل للمشيئة الإلهية، أما التاريخ ينظر إلى موضوعه بإعتباره نجلاً للإرادة الإنسانية في جدليتها مع قوانين فاعلة في حياة الإنسان الاجتماعية.

ويمكن القول إن الأسطورة والتاريخ كلاً يهدف إلى أمرٍ محدد وهو منح الإنسان القدرة على فهم نفسه والشروط الموضوعة المساهمة في وجوده. و لذا فإننا نفهم التاريخ على انه نتاج الأفعال و سلوك الإنسان إضافةً إلى قوانين التطور التي تعمل كمحركٍ للتاريخ و قوةٍ مؤثرةٍ فيه لا على أنه نتاج قرارات إلهية و مشيئتها ، و على أن ما قرر حاصل و ما علينا إلا الإنسجام[30] معه .

ولا بد من الإشارة إلى أن الأسطورة الأولية " أسطورة الخلق والتكوين «التي تدور أحداثها في زمن موغل في القدم لا تعرف بدايته، لذلك لا يمكن لنا رد أصولها إلى أحداث تاريخية يمكن أن ترتبط بها، وكل ما يمكننا قوله أن أحداث الأساطير الأولى كانت تدور في ذلك الزمن الذي يمكن أن نسميه بالتاريخ المقدس. وهي مرحلة وجود الإنسان، أي مرحلة اصطدم فيها السكون بالضجيج الذي

أحدثه الكائن البشري الذي أزعج الآلهة في هذا الزمن الذي تحدثت عنه هذه الآلهة التي وضعت النظام للكون، والذي بدأ فيه الإنسان يخطو خطواته الأول من أجل اِمتلاك إرادته وظهرت رغبته في التأثير في الأحداث التي تدور حوله. أصبحت الملاحم تشكل علاقة بارزة فيه وأصبحت أحداثها تدور بشكل أو بآخر حول أشخاص مروا في الذاكرة البشرية وتركت أعمالهم ومآثرهم أثراً فيها.

كان على الذاكرة أن تحتفظ لنفسها بذكريات تعطي وجود الإنسان في هذا الكون قيمةً ومعنى. وإذا كان الإنسان القديم قد نسب إلى الآلهة كل الأحداث التاريخية، ورغم أنها قد حفظت نتيجة قرارات صادرة عنها، إلا أنه حين وعى ذاته بدأ ينسب أعماله لنفسه. صحيح أنه تخيلها أنها تحدث بشكل مشابهٍ للطريقة التي كان يقوم بها الآلهة بعملها ، و لكن في المؤكد أن في رحلة اِختراع الكتابة واِكتشاف الزراعة و أنظمة الري و اِنتقاله من السكن في البراري إلى السكن المشيد مما هو موجود في الطبيعة ، فإنه قد وعى أن الزمن زمنه و عليه أن يقوم بمحاولة فرض تاريخه و قراراته على مجرى الأحداث التي يعيشها ، لأن في هذه المرحلة بدأ التاريخ ينجو من قدسيته ؛ لأن الإنسان في هذه المرحلة بدأ يعرف نفسه ، و بدأ يدرك ما يحصل له و يمكن أن نلتمس في النصوص القديمة أثر الرجال العظام في صنع الحدث ، وبالتالي في صنع التاريخ الذي مر بنا .

ونختم بالقول، أننا لا نستطيع أن ننظر للأسطورة والملحمة على أنهما تاريخ لوقائع حدثت بالفعل مع مطابقة كل التفاصيل الواردة. مع الإشارة أن هذا الحدث الذي هو موضوع القصة قد يكون ذا أساس تاريخي[31]

6. خاتمة:

ومما تقدم نصل إلى أنه لا يمكن لنا أن نقلل من قيمة الملحمة كمصدر له أهمية، نستطيع أن نستقي منه معلومات عن تاريخ الشعوب القديمة، رغم الخيال الذي

ورد فيها الناتج عن طابعها الادبي والفني، بل نضعها في مصاف المصادر الأدبية الهامة التي تفيدنا بمعلومات تساعدنا في دراسة تاريخ الحضارات القديمة.

الهوامش:

[1] محمود غنيمي هلال، المواقف الأدبية، نهضمة مصر، ص 226.

[2] نور الهدى لوشن، وقفة مع الأدب الملحمي، 2006، ص 10.

[3] معجم السرديات، إشراف محمد القاضي، الرابطة الدولية للناشرين المستقلين، 2001، ص 419.

[4] عثر على أجزاء منها في العاصمة الحيثية، وعثر على أجزاء أخرى حتى بفلسطين.

انظر: أحمد أبو زيد، كتاب الملاحم، مجلة عالم الفكر، المجلد الأول، العدد 16، 2000، ص 35.

[5] المهاباهاراتا، نص سنسكريتي نسبت خطأ إلى (غايازا) وهي من الملاحم التي تحمل نهاية مأساوية.

انظر: لويس ريتو، آداب الهند، ترجمة هنري رغيب، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ص 16.

[6] لطفي عبد الوهاب يحي، اليونان (مقدمة في التاريخ الحضاري)، دار المعرفة الجامعية، مصر، ص 66.

[7] : Andrée Rousseaux, Le monde classique. Edition Alan Michel. Paris, P 31.

[8] كتبت الملحمة في زمن باتت فيه القيم التقليدية موضع رفض أو تشكك لان شعب أورك المدينة العراقية الجنوبية التي يحكمها جلجامش لم يعد متقبلا للقضاء الإلهي. ولان الحضارة السومرية والبابلية مثل الحضارات القديمة تقبلت النظام الاجتماعي الطبقي واعتبرته حالة بشرية طبيعية لان المجتمع اتجه إلى فكرة الثورة الاجتماعية والمطالبة بخلق شخصية ضدية لجلجامش تضع حدا لحرية الملك المقدس فتخلق الآلهة شخصية أنكيدو من الصلصال.

انظر: عفيف فراج، المرجع السابق، ص 32.

[9] نفسه، ص 40.

[10] نفسه، ص 67.

[11]فراس السواح، جلجامش ملحمة الرافدين الخالدة، منشورات دار علاء الدين، دمشق - سوريا، ص 29.

[12] عرفت مكانة المرأة عند المجتمع الإغريقي مرحلتين متباينتين. ففي عصر الأبطال حظيت المرأة بمنزلة هامة إلى درجة انه كانت تشن الحروب لأجلها مثلما حدث في حرب طروادة وما تحدث عنه في الإلياذة والاوديسيا إلا أن مكانة المرأة تراجعت مع تطور مظاهر الحياة في بلاد الإغريق ويرجع ذلك صاحب الكتاب إلى تأثر حضارات الشرق في بلاد الإغريق أي أن المؤلف هنا حصر تأثير الشرق في بلاد الإغريق حول مكانة المرأة فقط في المجال السلبي.

أنظر: المرجع نفسه،

[13] : عبد القادر جموسي، ذرة الأدب الهندي المهابهارتا، مقال في جريدة العربي الأسبوعي.

[14] : إكتشف الكاتب الفرنسي جون كلود كاربير والمخرج البريطاني بيتر بروك ملحمة المهابهارتا على يد أحد أساتذة اللغة السنسكريتية ليجدا نفسيهما أمام نص عظيم بكل المقاييس يصلح كمادة لعمل درامي كان من أهم الأعمال المسرحية الحديثة.

- عبد القادر جموسي، المرجع السابق.

انظر، عبد القادر حموسي، المرجع السابق.

[15] المهابهارتا، (ملحمة الهند الكبرى)، ترجمة عبد الإله الملاح، 1991، ص 10.

[16] E.G. Eichhoff : Poesie Heroique de Indiens (comparée à L'époque grecque et Latin) Auguste Durand, Paris 1860, p.p 51 -52.

[17] Thucydide, la guerre de Péloponnèse, trad par J De Rommuly, Paris, 1953, P 8.

[18] إبراهيم عبد العزيز جندي، معالم التاريخ اليوناني القديم، ج 1، المكتب العربي لتوزيع المطبوعات، مصر 1998، ص 156.

[19]نفسه، ص 158.

[20] نفسه ص 158- 159.

[21] المرجع السابق، ص 159.

[22] Mm Guigniant, Patin. Juler Gérard : poètes moraliste de la Grèce (page 5)

[23] محمد كامل عياد، تاريخ اليونان ج 1 ط 1، دمشق، سوريا، ص. ص 118 – 119

[24] F. G Elich hoft, poésie héroïque de lidiens comaree a l epoque grecque et latin, Paris n 1860, page 52

[25] فيروميتوس سرق النار التي هي رمز لطموح البشر المعرفي والعلمي وهي التي منحت الإغريق المعارف الإنسانية التي واجه الحياة بها، لذلك دافع البطل هو تجسيد تطلعات العقل البشري الراغب في السيطرة على الكون.

محمد العابد، المرجع السابق، ص 112.

[26] هناك تشابه في خلق البطلين هرقل وجلجامش كلاهما من أصل إلهي وأصل بشري، وكلاهما يخوض مغامرات فجلجاميش يقتل (حمباب) ويقتل هرقل الأسد الذي بث في المدينة الرعب والخوف، وخاض البطلان لنشر الخير والتخلص من الشر.

المرجع السابق، ص 115.

[27] المرجع السابق، ص ص. 115 – 116

[28] عبد الرحمان العابو، البطولي في أساطير الشرق القديم وملاحمه، رسالة دكتوراه 2010.

[29] إن الأسطورة ملحمة والملحمة أسطورة، لأن الأساطير التي أبطالها الآلهة يقومون بأعمال ومغامرات بطولية، مما يجعل الباحث يتجاوز الحدود المتعارف عليها. ولكن في الأسطورة لا يوجد صراع هذا القدر. وأبطالها ليسوا من البشر، وليس هناك شعور بالترقب لمعرفة نتائج الأحداث. لأن نجاح الآلهة مسبوقاً دائماً.

نفسه.

[30] عبد الرحمان العابو، المرجع السابق، ص 92.

[31] المرجع نفسه، ص. ص 92 ..... 95.